

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلل - د. باديس لهويمل

التخاطب في بلاغة السكاكي

"The key to science" Sakkaki (d. 626 e)

د. الربيع بوجلل جامعة محمد بوضياف - المسيلة . الجزائر
د. باديس لهويمل جامعة محمد خيذر . بسكرة - الجزائر

المرسل b.lehouimel@univ-biskra.dz – Boudjellal1967@gmail.com

تاريخ الارسال 2019/10 /23 – القبول : 2019/11 /01

E . ISSN : 506-2602X - ISSN : 2335 - 1969

صفحات البحث من : 109 إلى 108

ملخص:

Abstract: This article is a general descriptive study that examines the importance of the addressee in the production of speech in traditional rhetoric, since the addressee should issue a number of elements in order for his speech to achieve the communicative efficacy of these elements, taking into account the situation of the audience who receives his speech and taking into account the context of communication and place. Me Sakaki in his book the key to science Emma care.

The study also tries to examine aspects of interest in the Arabic communication through the topic of striking the news and some aspects of the violation of the apparent requirement based on the assessment of the recipient, taking advantage of the deliberative presentation of the speech as much as possible because of the mechanisms that contribute to the development of our Arabic rhetoric and its issues in accordance with the data of contemporary linguistic knowledge

Keywords: Rhetoric, deliberative, communication, linguistics

هذا المقال دراسة وصفية عامة تبحث في أهمية المخاطب في إنتاج الخطاب في البلاغة التقليدية ذلك أن المُخاطب حين يصدر خطابه وجب عليه مراعاة جملة من العناصر لكي يحقق خطابه النجاعة التواصلية من هذه العناصر مراعاته حال الجمهور الذي يتلقى خطابه ومراعاة سياقه التواصلية ومقامه، وهي عناصر عني بها السكاكي في كتابه مفتاح العلوم أيما عناية.

كما تحاول الدراسة بحث مظاهر الاهتمام بالمخاطب في بلاغتنا العربية من خلال مبحث أضرب الخبر وبعض مظاهر مخالفة مقتضى الظاهر المبنية على تقدير حال المتلقي، مستفيدين من الطرح التداولي للخطاب قدر المستطاع لما يحويه من آليات تسهم في تطوير بلاغتنا العربية وقضاياها بما يتلاءم مع معطيات المعرفة اللسانية

الكلمات المفتاحية: بلاغة، تداولية، واصل، لسانيات، الخطاب

يحظى كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي (ت626هـ)⁽¹⁾ بمكانة مهمة في التراث البلاغي العربي، نظرا لما قدّمه من جمع وتنظيم وتبويب لمباحث البلاغة العربية وضبط لمصطلحاتها بعدما كانت منتشرة ومشتتة المسائل والقضايا لا يضبطها ضابط ، حتى جاء أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي فجمع مباحثها وحدّد مصطلحاتها وأقسامها لتصير علما له أصوله وقواعده الضابطة له، فتأخذ بيد الناشئ لتعلّمه كيفية الاحتراز عن الخطأ في الكلام، وكذا تلقّيه وتفهم معانيه بدقة.

و"مفتاح العلوم" كتاب في علوم اللغة وضعه السكاكي بهدف معرفة كيفية صحّة الأداء اللغوي في عصر فلتت فيه الملكات الأدبية وفسدت الأذواق، فضمّن كتابه علوما عديدة، أساسها علم الصرف وعلم النحو و علم المعاني يقول: «وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، القسم الثاني في علم النحو، القسم الثالث في علمي المعاني والبيان»⁽²⁾.

فمفتاح العلوم بنية منهجية غير قابلة للتجزئ تعمل فيها علوم اللّغة جميعا متضافرة في منظومة معرفية متكاملة يكمل فيها الأخير الأول، ويستدعي فيها كل علم ما لا يتمّ إلّا به.

وهي علوم متآخذة فيما بينها يكمل فيها الأخير الأول في بنية منهجية متماسكة، لتعمل متضافرة على تأدية ما سمّاه "بعلم الأدب"، هدفه في المفتاح يقول: « وقد ضمّنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة⁽³⁾، ما رأيته لا بدّ منه وهي عدّة أنواع متآخذة، فأودعته علم الصّرف بتمامه، وأنّه لا يتمّ إلّا بعلم الاشتقاق المتنوّع إلى أنواعه الثلاثة، وقد كشفت عنها القناع، وأوردت علم النّحو بتمامه وتمامه، بعلمي المعاني والبيان وقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال، لم أر بدّا من التّسمح بهما، وحين كان التّدرّب في علمي المعاني والبيان، موقوفا على ممارسة باب النظم وباب النثر، ورأيت صاحب النّظم يفتقر إلى علمي العروض والقوافي ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما»⁽⁴⁾.

وفي سبيل تحقيق السكاكي لما يطمح إليه، ضمّن كتابه كثيرا من مظاهر دراسة اللغة في الاستعمال، وكان له فضل الالتفات إلى العديد من ظواهر اللّغة الهامّة سواء في النّحو أو البلاغة،

أو الدلالة، بمنظور حديث يضاهي ما في لسانيات النص، واللسانيات التداولية من طرح جديد لدراسة اللغة، وعالج السكاكي هذه القضايا بوعي عميق وتفهم لا يقلّ عن إدراك اللغويين والتداوليين الغربيين أمثال: بيرس Peirce وفان دايك Van Dijk وجون أوستين J. Austin ورومان جاكسون Roman Jakobson، وهو ما جعل "مفتاح العلوم" يزخر بمظاهر تداولية مهمة، تظهر في معالجاته اللغوية والبلاغية لكثير من القضايا التواصلية كما سنبيّن. مما جعله يحوي قضايا لسانية تداولية قيمة، لعلّ أبرزها عنايته بعناصر العملية التواصلية وخاصة اهتمامه بالمُخَطَّب (الجمهور) وضرورة مراعاة حاله ومقامه، وإلا فلن يجني المتلفظ بالخطاب فائدته المرجوة في تبليغ مقاصده. وهي قضايا واهتمامات يمكن التأصيل لها والاستئناس بها، بإعادة توجيهها وترقيتها بما يخدم بلاغتنا العربية الحديثة على نحو ما يفعل الباحث عماد عبد اللطيف في بلاغته.

لقد عني السكاكي كثيرا بتوصيف عناصر العملية التواصلية، لما لها من أهمية في إنتاج الخطابات وتلقيها بوجه حسن، وتفهمها بصورة واضحة ومفهومة لا يشوبها نقص ولا تبديل، فالتفت إلى كل ما يحيط بالعملية التخاطبية، من سياق لغوي ومقام تخاطبي بما يضمّه من ظروف وأحوال ترتبط بالجمهور، وخطاب (الرسالة) ومدى وضوحها ومقبوليّتها للجمهور المتلقي لها، ووطرفا الرسالة (مُخاطَب/ ومخاطَب).

أولا: السياق ومقتضى الحال في المفتاح: ركز السكاكي في "المفتاح" على فكرة "المقام" كثيرا خاصة في علاقتها بالمتكلم والسامع (الجمهور) ومدى تأثيرها في نجاح العملية التواصلية من خلال نقل قصد المتكلم للجمهور من متلقيه (المخاطَب) الذي يتغيا من خلالها تحقيق فائدة استنادا لعمليات استدلالية عقلية تتخذ من المقام عمادا لها. ولعلّ المتنبّع لمباحث المفتاح يلحظ أنّ فكرة "مقتضى الحال"، كانت توطّر عمل السكاكي في كثير من مباحث المفتاح، حيث جعل منها أساسا لمعرفة قصد المتكلم من خطابه، وتحديد له سواء في إجراء الخطاب على أصل الاستعمال، فيعبّر المتكلم عن قصده بحسب مقتضى الظاهر، أو في تجاوز ذلك لمعان ثوان يجري فيها الكلام لا على مقتضى الظاهر، والمقام هو الذي يضمن سلامة المعنى وتحقيق الفائدة لدى السّامع، ولذلك عدّ الباحث الجزائري "عبد الملك مرتاض" مصطلح "مقتضى الحال" عند السكاكي يكافئ دلاليا في اللسانيات الحديثة مصطلح "تداولية اللغة" يقول: «ونلاحظ أنّ مفهوم السياق البلاغي تتنازعه نزعتان اثنتان إحداها "المرجع" وإحداها الأخرى "تداولية اللغة" أو ما في حكمه أو ما يطلق عليه

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلل - د. باديس لهويل

أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت626هـ) مقتضى الحال⁽⁵⁾. فكرة مقتضى الحال أو السياق عموما، بما يضمّه من صفات للمتكلّم وعاداته ومقاصده وإشاراته الجسميّة، وكذا السامع وصفاته وعاداته ومستواه، والزمان والمكان... ذات أبعاد تداوليّة بارزة تظهر من خلال إسهامها في تحديد دلالة الفعل الكلامي الإنجازي المباشر وغير المباشر وفهمها، وهو ما أكده جون "أوستين" بقوله: «إن مسألة الأغراض والمقاصد في التّلفظ بالعبارة وما يحتف بها من سياق قرائن الأحوال، هي مسألة لها خطرها وشأنها»⁽⁶⁾.

ويقول "أوستين" في موضع آخر «ما نستعمله من ألفاظ ينبغي أن نرجع في بيان معانيها ولغاية تأويلها» إلى سياق الكلام ومقتضى الحال الذي وقع فيه تبادل التّخاطب اللّساني أو وروده فيه على وجه مخصوص⁽⁷⁾. لأن استعمال اللغة من منظور اللسانيات التداولية يكون لأجل تحقيق أهداف وغايات ومقاصد ، وتحصيل فوائد عملية في مقامات مخصوصة.

ولم يفت السكاكي تأكيد هذه الفكرة التداولية بكلّ أبعادها حيث نجده وتحت عنوان فرعي لكل مقام مقال⁽⁸⁾، يبيّن في نصّ نفيس دور السياق بنوعيه، وبخاصّة مقتضى الحال، في كشف مقاصد المتكلّمين وتأطيرها أثناء الإنجاز اللّغوي، وكذا دور السياق في تحقيق الإفادة لدى السّامع منطلقا من معطيات علم النحو (أصل المعنى) ليصل إلى المعاني التّواني في علم المعاني و ودلالاتها الضّمّنية، يقول: «لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة فمقام التّشكر يباين مقام الشّكايّة ومقام التّهنئة يباين مقام التّعزية، ومقام المدح يباين مقام الدّم ومقام التّرجيب يباين مقام التّرهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ومقام البناء على السّؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب وكذا مقام الكلام مع الذّكي يغاير مقام الكلام مع الغبي و لكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر، ثم إذا شرعت في الكلام فكل كلمة مع صاحبها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق، وهو الذي نسمّيه مقتضى الحال»⁽⁹⁾.

هذا النصّ القيم يدخل ضمن مباحث العناية بحالة الجمهور المُخاطَب بالكلام ، ويندرج ضمن معالجات اللّسانيات التّداولية حديثا؛ حيث يكشف عن أوضاع لسانية مرتبطة بالصّياغة اللّغوية،

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلal - د. باديس لهويل

وأخرى غير لسانية منها ما يرتبط بالمتكلم ومقاصده، ومنها ما يرتبط بالسّامع وأحواله والفائدة التي سيجنيها من الخطاب، هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد السكاكي يميز بين: مقامات الكلام و تدل في الأغلب على الأغراض والمقاصد التي يساق لها الكلام نحو التشكر والتعزية والتهنئة والترهيب والترغيب التي من أجلها ينتج المتلفظ بالخطاب نصه. ومقتضى الحال ويشمل الخصوصيات والاعتبارات القائمة بالكلام فيرتبط بخواص تراكيب الكلام حيث يختار المتكلم من التراكيب البليغة ما يناسب قصده من الكلام في ظل المقامات والأحوال الخاصة التي يصدر فيها خطابه⁽¹⁰⁾. ولذلك فإنّ مقتضى الحال أشد ارتباطا بخواص تراكيب الكلام التي يبحثها علم المعاني كونها أساسا تتحقّق من خلاله مقاصد المتكلم وتتكشف، ولذلك فإنّ علم المعاني « عادة ما يهتم بخواص التراكيب التي تكون دليلا على مقصد المتكلم وغايته من كلامه، فعلم المعاني عند البلاغيين ليس علم التراكيب بل هو علم خواص التراكيب»⁽¹¹⁾ التي توصلنا إلى غرض المتكلم من كلامه، فالوظيفة الدّاولية لعلم المعاني تختص ببناء الحدث اللغوي(المقال) من خلال اختيار التراكيب المناسبة لغرضه من جهة ومقام جمهوره المتلقي لخطابه من جهة ثانية. واختيار قوانين النّحو الملائمة وتنظيم المحتوى بطريقة منطقية تتّسق ضمن عملية الاتّصال اللّغوي بأكملها.

فبنية الخطاب اللغوي تختلف بحسب مقاصد المتكلمين وتغييرات المقام ولذلك كان لكل مقام مقال، وكل تغير في المقام والقصد يتبعه تغيير في الصياغة اللغوية(خواص التراكيب).

كما التفت السكاكي إلى كلّ ما يحيط بالعملية التّواصلية من سياق ومقام وخطاب وطرفيه مخاطب ومخاطب(جمهور)، ووصل إلى أنّ مقامات الكلام مختلفة وكذا أنماط الاستخدام اللّغوي وأشكاله تختلف وتتنوّع بحسب العلاقات الاتّصالية ومقتضيات هذا الاتّصال، من مقام المتكلم إلى مقام السّامع ومقام الكلام وسياقات وروده، فخطاب الذكي مثلا يغيّر خطاب الغبي وخطاب المثقف يغيّر خطاب العامي من النّاس حتى يحقق الخطاب أغراضه التّواصلية والإقناعيّة، فللمقام بكل ما يحمله من عناصر دور كبير في ممارسة الخطاب الإقناعي وإنجازه انطلاقا من قصد المتكلم وانتهاء بإفادة السّامع معنى أو إقناعه والتأثير عليه. ولذلك يبدأ السكاكي حديثه عن المقام بتأكيد فكرة "مقتضى الحال" يقول: « ولا يتّضح الكلام في جميع ذلك اتّضاحه إلّا بالتعرّض لمقتضى الحال»⁽¹²⁾

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلal - د. باديس لهويل

فالسّياق الذي يعالجه السّكاكي سياق نصّي تداولي، مبني على مراعاة مقام المخاطب، ولذلك يحوي النّص بنى لغوية ذات خواص ترتبط بمقامات إنجازها، وفكرة مقتضى الحال التي يدعو السّكاكي لمراعاتها في جل مباحث المفتاح، تشكّل سياقاً تداولياً يتمّ من خلاله دراسة مباحث البلاغة في سياقاتها الاستعمالية، المرتبطة بالجمهور المتلقي وما يحف به من مقامات.

ثانيا: مظاهر العناية المباشرة بالمخاطب والمخاطب وأبعادهما التداولية:

أكّد السكاكي كثيرا على أهميّة التخاطب والتّواصل بين الناس، وأنّه لا يتمّ إلا بمراعاة طرفي الخطاب (مخاطب/مخاطب)، كما أنّ الرّسالة في حد ذاتها تتحدّد نوعيتها من خلال مراعاة حال السامع ومكانته، ولعل هذا ما جعل السكاكي يقيم دراسته في المفتاح كلّها «انطلاقا من العلاقة بين المتكلم والمخاطب في مختلف حالاتها وتغيّراتها وظروفها، وكذا مقاصد ونوايا المتكلم من وراء استعماله للغة»⁽¹³⁾. فالتخاطب عند السّكاكي يتمّ من خلال مراعاة: المخاطب والمُخاطب بعدهما أساس عملية التّواصل، يقول: «وحق الخطاب أن يكون مع مُخاطب معيّن»⁽¹⁴⁾.

1- المُخاطب (المتكلم): هو الذات المحورية في إنشاء الكلام لإعلام المُخاطب (الجمهور)

بمراده وقصده، فمن خلاله تنتقل اللّغة من الوجود بالقوّة في ذهن صاحبها، إلى الوجود بالفعل حين يتلفظ المتكلم بها. ومن مظاهر عناية السكاكي بالمتكلم، تعريفه لعلم البيان، حيث جعل قصد المتكلم لبّ الدّراسة، يقول: «هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»⁽¹⁵⁾.

فعلم البيان في اهتمامه بمطابقة الكلام للمراد منه يعني أنّه يقوم أساسا على العناية بقصد المتكلم وبجعله مركز اهتمامه، فإذا لم يوافق الكلام قصد قائله ولم تتحقّق المطابقة لا يتحقّق للخطاب أو النّص نصّيته، ولو كان خطابا سليما، ومعلوم أنّ القصد بؤرة اهتمام اللّسانيات التداولية لأنّه أساس التّواصل؛ فلا تواصل دون قصديّة، إنه الخطوة الأولى التي يقوم بها المتلفظ بالخطاب، وهذه سمة تداولية تبرز عند السّكاكي في حدّه لعلم البيان، وبيانه دور المتكلم في إنشاء الخطاب.

ومن الإشارات الواضحة أيضا التي اعتنى فيها السّكاكي بالمتكلم (المبدع)، ربطه الخطاب، ويسمّيه الكلام، بشخصية مبدعه وكفاءته اللغوية الأدبية، يقول: «نظم الكلام إذا استحسّن من بليغ

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلل - د. باديس لهويل

لا يمتنع أن لا يُستحسن مثله من غير البليغ، وإن اتّحد المقام، إذ لا شبهة في صحّة اختلاف النظم مقبولا وغير مقبول عند اختلاف المقام، فلا بد لحسن الكلام من انطباق له على ما لأجله يُساق ومن صاحب له عزّاف بجهات الحسن لا يتخطاها وإلا لم يمتنع حمل الكلام منه على غيرها ويتعرى عن الحسن لذهاب كسوته»⁽¹⁶⁾.

فالسكاكي يرى أنّ النّص لا يكتسب نصّيته وجماليته، إلّا إذا كان صادرا عن المتكلم وملبّيا لقصده من كلامه، ومطابقا له، فيكون المتكلم على وعي بما يقصده، ومدركا له وبذلك يكتسب النّص الأدبي شخصيته «ويستمد قوته وبلاغته وخصوصيته من شخصية مبدعه»⁽¹⁷⁾.

ويشترط السكاكي في المتكلم أن تتوفر فيه كفاءة لغوية بلاغية تمكّنه من نظم الكلام، كأن يكون مدركا للإمكانات اللغوية المتاحة له من تقديم وتأخي وحذف وذكر ومن جهات الحسن والعناصر الجمالية المختلفة، ولذلك رأى أن الكلام إذا لم يصدر من بليغ عزّاف بجهات الحسن لا يكتسب نصّيته لعدم توفر القصد من صاحبه، وإن حفل ببعض العناصر الجمالية والقيم البلاغية، ذلك أنّ «جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو، ولا نشترى بثمنها، ولا تجري في مساومتها على سننها، ما لم يكن المستخرج لها بصيرا بشأنها والراغب فيها خبيرا بمكانها»⁽¹⁸⁾.

فقيمة النّص الأدبي عند السكاكي ترتبط بالمتكلم أو المبدع ومدى براعته وامتلاكه لكفاءة تجعله بصيرا بموالمج الكلام ومخارجه وعلى أساس هذه الكفاءة يكتسب النّص الأدبي نصّيته وأدبيّته ثم إن إنتاج النصوص والخطابات في حد ذاته يكون على أساس الإمكانات اللغوية والأدبية للمبدع وثقافته وكل ما يحيط به، ويختلف بين الناس باختلاف كفاءاتهم اللغوية والأدبية، وبذلك يكون إنتاج الخطابات والنصوص الأدبية بما تحويه من صور وأخيلة ما هو إلا نتاج المخزون الذهني للمتكلّم والمبدع من اللغة والخيال والمعاني⁽¹⁹⁾.

وبذلك فالأسلوب الذي يسود في النص ويقوم عليه هو أسلوب مؤلّفه، وطريقته في التّفكير، يقول السكاكي: «فإنّ جميع ما يثبت في الخيال ممّا يصل إلى (المبدع) من الخارج، يثبت فيه على نحو كما يتأدّى إليه، ويتحرّر لديه، ولذلك لمّا لم تكن الأسباب على وتيرة واحدة فيما بين معشر البشر، اختلف الحال في ثبوت الصّور في الخيالات ترتبا ووضوحا، فكم من صور لا تكاد تلوح في الخيال

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلّال - د. باديس لهويلم

وهي في غيره نار على علم»⁽²⁰⁾. بمعنى أن عملية إنتاج الخطابات والنصوص يتم فيها ربط النص بمبدعه حيث يكون الخطاب نتاجا لعملية صياغة الألفاظ والمفردات في تراكيب معينة تخضع لإمكانات المتكلم اللغوية وكفاءته، وتكون فيها حاملة للأخيلة والمعاني التي في ذهنه، وبذلك فأهلية المتكلم تعدّ محكّا حقيقيا في إنتاج الخطاب.

نجد كذلك من مظاهر عناية السكاكي بالمتكلم (المبدع) في إنتاج نصه/خطابه، أنّه يربط جمالية النصّ وأدبيته بذوق صاحبه الفنّي يقول: «فإنّ ملاك الأمر في علم المعاني هوّ الذوق السليم والطبع المستقيم فمن لم يرزقهما فعليه بعلوم آخر، وإلاّ لم يحظ بطائل ممّا تقدم و تأخّر»⁽²¹⁾.

وهو ما يتحقق من خلال ذرية المتكلم على النصوص الإبداعية الجيدة، بحفظهما والسّير على نهجها في إنتاجه لنصوصه وخطاباته الإبداعية.

يتجلى إذن بوضوح وعي أبي يعقوب السكاكي بأهمية المتكلم /المبدع ودوره في إنتاج النصّ الأدبي/الخطاب سواء من الجانب اللغوي، أم من الجانب الشخصي للفرد ومخزونه الذهني والفكري وهو وعي يتقاطع فيه السكاكي، ولا جرم في ذلك، مع علماء لسانيات النصّ والتداولية في عنايتهم بالمتلفظ، بعدّه منتجا للخطاب وذاتا محورية فيه.

ب-المخاطب (الجمهور): يمثل المخاطب(الجمهور) حاجزا مهما في ذهن المخاطب منتج الخطاب في البلاغة العربية، ولا يكون إنتاج الخطاب إلا من خلال مراعاة حاله ومقام تواصله،وغلاّ لن يحقق الخطاب نجاعة تواصلية، إنه - الجمهور- الطرف الثاني في عملية التخاطب، وعلى أساسه (المخاطب) يتحدد نوع الرسالة (الخطاب)، التي ينشؤها المتكلم (المخاطب)، «فإنشاء الخطاب وتداوله مرهون إلى حدّ كبير، بمعرفة حاله أو بافتراض ذلك الحال، والافتراض المسبق ركن ركين في النظام البلاغي العربي، إذ العناية في المقام الأول موجهة إلى المرسل إليه»⁽²²⁾؛ فيختار المتكلم الإستراتيجية التي تناسب قصده وتراعي حال مخاطبه كي يضمن لكلامه الإفادة، وهذا ما يمنح الخطاب حيويته وحركيته.

ومن مظاهر عناية السكاكي بالسّامع(الجمهور) في المفتاح نجد تعريفه لعلم المعاني حيث جعل مراعاة حال السامع⁽²³⁾مركز اهتمامه، وعلى أساس هذه الحال تتفرع أصرب الخبر يقول: «اعلم أنّ علم المعاني هوّ تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره،

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلّال - د. باديس لهويلم

ليحتز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»⁽²⁴⁾. فعلم المعاني عند السكاكي يبحث في مطابقة الكلام لمقتضى الحال أي أن ثوافق تراكيب الكلام، ما يقتضيه الحال، فيهتم أساسا بالمقام ومن ضمنه حال الجمهور متلقي الخطاب، فإذا تحققت المطابقة أو الموافقة، ينتج عنها إفادة واستحسان في الكلام.

وبذلك فالسكاكي يشترط الإفادة والاستحسان في علم المعاني، ذلك أنّ الكلام إذا لم يُحقق فائدة لدى المتلقي (الجمهور)، يعدّ كلاما باطلا لا يُلبّي الغرض الذي وُضع من أجله. فموضوع علم المعاني إذن دراسة العلاقة بين تراكيب الكلام و"مقتضى الحال"، وهذا من مباحث العناية ببلاغة الجمهور (المخاطب) في بلاغتنا العربية، ويندرج أيضا ضمن مباحث الدراسة التداولية عند السكاكي حيث يجعل علم المعاني يقوم على دراسة التراكيب في ضوء المقام الذي يرد فيه ومدى مطابقتها له تحقيقا للإفادة والاستحسان، والإفادة في حدّ ذاتها سمة تداولية مهمة تستند عليها في دراستها اللغة أثناء الاستعمال.

ولمّا كان علم المعاني يُعنى أساسا بالموقف الخارجي "المقام"، أو بلاغة الجمهور - إن صحّ التعبير - فيراعي حال السامع ويجعله مركزا لاهتمامه، جعله "محمد عابد الجابري" يُعنى بشروط إنتاج الخطاب، في حين جعل علم البيان الذي يركّز على مطابقة الكلام للمراد منه، يُعنى بقوانين تفسير الخطاب ذلك أنه يهتم بالموقف الداخلي فيركّز على قصد المتكلم من كلامه ومدى تحقيق تراكيب اللغة لهذا القصد⁽²⁵⁾.

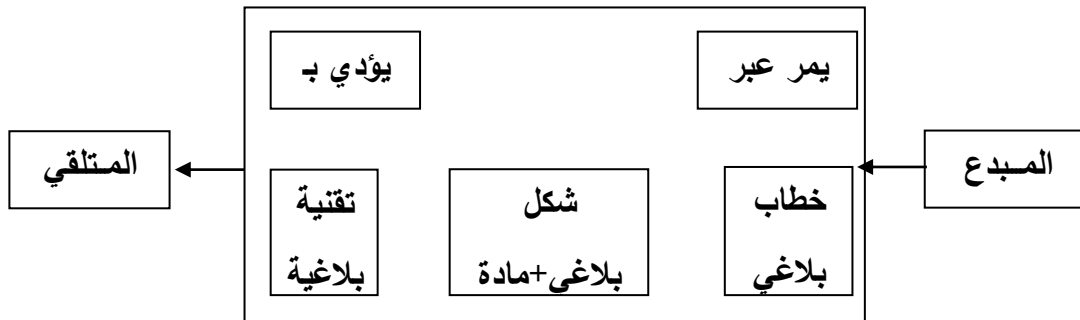
ومن مظاهر عناية السكاكي بالسّامع ودوره في توجيه الخطاب ربطه مقتضى الحال بالسّامع حيث يكون إما خالي الذهن أو مترددا في حكمه أو منكرا له، وقد يخرج كلام المخاطب على خلاف مقتضى الظاهر كأن يجعل غير المنكر كالمنكر والمنكر كغير المنكر⁽²⁶⁾. فالسامع (الجمهور) إذن يتحكم في توجيه الخطاب إليه كي يحقق الفائدة فخطاب المتردد في الكلام يختلف عن خطاب المنكر له.

إن عناية السكاكي بعناصر الخطاب ورعايتها في تراكيب الكلام تجعل "المفتاح" مجالا خصبا لإقامة لسانيات تداولية عربية، تهتم ببلاغة الجمهور، وتبحث في المعنى وتتخذ من اللغة أرضية للدراسة والتحليل أثناء الاستعمال، ذلك أنّ الذي يهتم بمقتضى الحال والمقام والمتكلم والمخاطب

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلل - د. باديس لهويل

(الجمهور) والخطاب والقصد والإفادة، وهي كلها مؤشرات للدراسة التداولية ومظاهر لها، حقيق بأن يُدرج ضمن الاهتمامات التداولية في التراث اللغوي العربي وبخاصة البلاغي منه، ولذلك صرح "فان دايك" Van Dijk بأن «البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص»⁽²⁷⁾ حيث تقدم البلاغة أبنية خاصة ومظاهر، لكل منها تقنية أدائية خاصة بكل شكل من الأشكال، كما تزخر البلاغة بآليات عديدة تعمل على تحقيق الترابط والتضام داخل النص تمت الإشارة إلى البعض منها، حين بياننا لرعاية السكاكي لعناصر الخطاب، مما يشير إلى أن «البلاغة ومادتها في الأصل تقدم خطابا إبلاغيا خاصا للمتلقى ابتداء من المبدع مروراً بالنص وانتهاء بالمتلقي ومن هنا فإن دراسة الخطاب البلاغي له أهميته الخاصة وخصوصا في إطار البنية النصية»⁽²⁸⁾.

كل هذا يؤكد مدى أهمية "مفتاح العلوم" في الإشارة إلى أبعاد تقنيات الخطاب البلاغي وآلياته في تحقيق الترابط النصي وفي دراسة المعنى أثناء استعماله من قبل المخاطب، وعليه فإن التصور العام الذي يمكن وضعه للمسألة البلاغية يكون على النحو الآتي⁽²⁹⁾:



ثالثا: بلاغة المخاطب في أضرب الخبر وفاعليتها في إنتاج الخطاب:

يرى السكاكي أن المعاني في الكلام لا حد لها ولا حصر، لذلك يجب وضع منهج لضبطها في علاقتها بتراكيب الكلام، يقول: «إنّ التعرض لخواص تراكيب الكلام موقوف على التعرض لتراكيبه ضرورة، لكن لا يخفى عليك حال التعرض لها منتشرة، فيجب المصير إلى إيرادها تحت الضبط بتعيين ما هو أصل لها وسابق في الاعتبار ثم حمل ما عدا ذلك شيئا فشيئا على موجب المساق، والسابق في الاعتبار في كلام العرب شيئا الخبر والطلب»⁽³⁰⁾.

فقسّم المعاني بحسب الأغراض والمقاصد (قرائن تداولية) إلى خبر وطلب (إنشاء) جاعلا لكلّ من القسمين أغراضا تواصلية ومقاصد ذات معان خاصة يساق إليها الكلام وتختلف التراكيب بحسبها.

أما الخبر فما قصد به إفادة مخاطب ما بمضمون إخباري أمره مبهم لديه ويكون لهذا المضمون الإخباري وجود في الواقع الخارجي، كي يُردّ إليه، فيحكم عليه بالصدق أو الكذب، بينما يكون الإنشاء (الطلب) متجردا عن العالم الخارجي، ومحدّدا في التركيب اللغوي لكنه لا يلقي خبرا إلى المخاطب، بل يستدعي مطلوبا لم يكن حاصلا وقت الطلب. ومعيار التصنيف بين الأسلوبين: بحسب قبول الحكم عليهما بالصدق والكذب⁽³¹⁾، استنادا للواقع الخارجي، يُعدّ معيارا تداوليا وقرينة هامة، ذلك أنه يستند في دراسة الكلام إلى مدى مطابقة الواقع من عدمها (العالم الخارجي)، بمعنى يدرس مدى مطابقة الكلام للاستعمال في الخارج من عدمها كي يكون خبرا، وإلا فهو طلب يتحقّق بفعل لغوي يستدعي من السّامع إنجاز عمل ما؛ فالخبر «هو الخطاب التّواصلي المكتمل إفاديا والذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية»⁽³²⁾، في حين يكون الإنشاء، أو الطلب بتعبير السكاكي «هو الخطاب التّواصلي المكتمل إفاديا والذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن توجد نسبته الخارجية»⁽³³⁾ وهذا جوهر ما تبحثه اللسانيات التداولية.

وإذا قبلنا تصور الخطابين الخبري والإنشائي بعامة بما جاء به "سيرل" نجد أنّ الخبر بما يحويه من أضرب، يندرج ضمن صنف "التّقريرات" Assertifs بمعاييره، وغرضها المتضمّن في القول هو "التّقرير" ويعني «إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به»⁽³⁴⁾ وشرطها امتلاك الأسس القانونية أو الأخلاقية التي تؤيد صحة محتواها، أما الطلب فيندرج ضمن باقي الأصناف ويتوزّع عليها. ⁽³⁵⁾ ومن بين ما تطرّق له السكاكي في قانون الخبر، ويحظى بالاهتمام بالمخاطب (الجمهور) دراسة التراكيب اللغوية الخبرية المتفاوتة ضمن ما يسمّى "بأضرب الخبر"، وهي دراسة يمكن تحليلها في ضوء ما جاءت به التداولية لنكشف عمق رؤية السكاكي لبلاغة الجمهور ومن ثمة تعميمها على كل البلاغة العربية كون الفكرة متكررة في جل مصادر البلاغة العربية، فنقول:

تتّضح تتّضح بلاغة الجمهور في بلاغتنا في ارتباطها بفكرة تداولية مهمة (أفعال الكلام)، من خلال عرض السكاكي لرواية أبي إسحاق الكندي مع أبي العباس المبرد، حينما سأل الكندي المبرد بأنّه يجد في كلام العرب حشوا يظهر في قولهم: "عبد الله قائم"، ثم قولهم "إنّ عبد الله قائم"، ثم "إنّ عبد الله لقائم" والمعنى حسب، واحد، فأجابه المبرد وهو أديب ولغوي، بأنّ المعاني مختلفة ذلك أنّ

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلّال - د. باديس لهويلم

"قولهم عبد الله قائم" إخبار عن قيامه وقولهم "إنّ عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل وقولهم "إنّ عبد الله لقائم"، جواب عن إنكار منكر لقيامه.⁽³⁶⁾

فهذه التراكيب بمعايير أوستين، و"سيرل" تشكّل أفعالا إنجازية مختلفة بحسب قصد المتكلم والمقام، ولذلك تمّ استعمالها في صيغ مختلفة، فالمثال الأول ورد خاليا من أدوات التوكيد، ليدلّ على مجرّد القصد إلى الإخبار فقط فهو فعل إنجازي منوط به الإخبار عن قيام زيد وإثباته له، والمثال الثاني: يعدّ أيضا فعلا لغويا يفيد الإخبار عن قيام زيد، لكن تمّ تأكيده بمؤكد واحد مراعاة لمقام الشاك المتردد، والمثال الثالث فعل لغوي يحوي قوّة إنجازية دالّة على رد الإنكار أو نفي الشك لمخاطب شاك ومنكر للكلام، وما الفرق بين هذه الأفعال اللغوية سوى في درجة الشدة بحسب الغرض المتضمّن في القول. فالمتلفظ بالخطاب يفاوت في درجة شدة أفعاله اللغوية بحسب غرضه المتضمّن في قوله، وحال مخاطبه «فكلّ صنف من المتضمّن في القول له غرض point أو هدف ذاتي internal لكونه فعلا من ذلك والمخاطب في تمييز أضرب الخبر. حيث يضطر المتكلم في كل مرة إلى تعديل خطابه والتّصرف فيه بحسب حال سامعه ومقامه كي يضمن لكلامه تحقيق الوظيفة التّواصلية المنوطة به، وهو ما يعرف في الفكر اللّساني المعاصر بـ"التّعلق بين البنية والوظيفة"⁽³⁷⁾ في الأنماط المقاميّة المختلفة فكانت أضرب الخبر ثلاثة:

1- **الخبر الابتدائي:** يلقي لمخاطب (جمهور) خالي الذّهن من الحكم الذي تضمنه فعل الإخبار⁽³⁸⁾ (الإثبات)، ولذلك يتمكن هذا الخبر من ذهن مخاطبه، ويكون بأن يفرغ المتكلم في قالب الإفادة ما ينطق به، فيقصد في حكمه بالمسند على المسند إليه في خبره إفادة مخاطبه، كما يقول السكاكي: «فإذا ألقي الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذّهن عما يلقي إليه، ليحضر طرفاها عنده، وينتقش في ذهنه استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتا أو انتفاء، كفى في ذلك الانتقاش حكمه، ويتمكن لمصادقته إياه خاليا»⁽³⁹⁾.

ففاعل الإخبار في هذا المقام يلقي خاليا من أدوات التأكيد لعدم الحاجة إليها، فقد صادف متلقيا لم يسمع به من قبل، فيتمكن الخبر من ذهنه. ذلك أن من طبيعة النفس تلقي الأخبار التي لا علم لها بها بالتصديق والقبول، نحو قول الشاعر: ⁽⁴⁰⁾

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فْتَمَكَّنَا [الطّويل]

ونحو قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾⁽⁴¹⁾

فالمثال الأول "زيدٌ قائمٌ" الذي ورد في حديث المبرّد إلى المتفلسف الكندي قائم على فعل الإخبار لأن المخاطب في هذا المقام خالي الذّهن عن الخبر، ولذلك سمّي ابتدائيا.

2- الخبر الطلبي: يلقي لمخاطب (جمهور) متردد وشاك في الحكم الذي تضمنه فعل الإخبار، فيكون في حاجة إلى معرفة حقيقته وتبينها، لأنّه في موقف الحائر المتردّد. ويسمّي السكاكي هذه الحالة "بين بين"، إذ المخاطب ليس منكرا للحكم من جهة، وغير مستعدّ لتقبّل هذا الحكم دون تقوية له وزيادة في حدّته. ويستحسن في هذه الحالة أن يقوّى له الكلام، بإدخال أداة من أدوات التأكيد حتى يزول تردّد المخاطب ويطمئن للحكم الذي تضمّنه فعل الإخبار، يقول السكاكي: «وإذا ألقاها [يقصد الجملة الخبرية] إلى طالب متحيّر طرفاها عنده دون الاستناد، فهو منه بين بين لينقذه عن ورطة الحيرة استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة، أو إنّ كنحو: لزيد عارف أو إنّ زيدا عارف»⁽⁴²⁾.

ففي توظيف أداة التأكيد، بعدّها قرينة تداولية، تسهم في تقوية درجة شدّة فعل الإخبار، قطعاً لشكّ الجمهور المخاطب وحيرته وتحويله إلى يقين، ممّا يدفعه إلى التسليم بالحكم الذي يحمله فعل الإخبار. وما المثال الثاني الذي رأى فيه الكندي حشواً، "إنّ زيدا قائمٌ" إلّا من هذا القبيل، ويسمى الخبر في هذه الحالة بالخبر الطلبي.

3- الخبر الإنكاري: يلقي لمخاطب منكر للحكم الذي تضمّنه فعل الإخبار إنكاراً تاماً ومعتقد فيه بخلافه، ولذلك يحتاج أن يؤكّد له الخطاب بأكثر من مؤكّد، وبتعبير سيرل يحتاج أن يزيد في درجة شدّة فعل الإخبار ممّا يضمن تحقيق الغرض المتضمن فيه، ذلك أنّ المخاطب حاكم في الخبر بخلافه، يقول السكاكي: «وإذا ألقاها [الجملة الخبرية] إلى حاكم فيها بخلافه ليرده إلى حكم نفسه، استوجب حكمه ليترجح تأكيداً بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده، كنحو "إنّي صادقٌ" لمن ينكر صدقك إنكاراً، و"إنّي لصديقٌ" لمن يبالغ في إنكار صدقك و"والله إنّي لصديقٌ" على هذا»⁽⁴³⁾.

ففي هذه الحالة ينتقل المتكلم إلى حالة التوكيد بأكثر من أداة كي يرد مخاطبه إلى حكمه (المتكلم)، وهو ما مثله في رواية ابن الأنباري المثال الثالث: "إنّ زيدا قائمٌ" فيه جواب لمن ينكر ذلك، ويسمى الخبر هنا ابتدائياً.

فالظاهر في الأضرب الثلاثة أن العبارة الواحدة تتشعب إلى ثلاثة خطابات تواصلية بحسب حال الجمهور المتلقي لها (السّامع ومراعاة المتكلم لها، والفرق بين هذه الخطابات الثلاثة لا يكمن في معناها القضوي وإنّما، كما بيّن سيرل، في درجة الشدّة في تحقيق الغرض المتضمن في القول، فيتدرج المتكلم في خطابه من الخبر الابتدائي إلى الإنكاري بحسب مقام سامعه وحاله ببيان ذلك كما يقول السكاكي، ما جاء في كلام ربّ العزة علت كلمته في خطاب المرسلين لأهل القرية، قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلّال - د. باديس لهويل

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴿٤٤﴾

واضح أنّ الآية الكريمة تضمّ جملة من المفاهيم المتعلقة بالخبر وأضره مما جعل السكاكي يوظفها
لتوضيح التدرج في بناء الجملة وصولاً للخبر الإنكاري في خطاب المرسلين، فكان مقام التبليغ متجدداً: (45)
المقام الأول: قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ يقتضي أنّ الخبر كان:

- أَرْسَلْنَا الله إِلَيْكُم، أو نحن مرسلان إليكم. ← خبر ابتدائي.

المقام الثاني: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ يقتضي المقام أن يعزز
الرسولان بثالث، وأن يؤكد الخطاب بأداة تأكيد، فكان الخبر:

- إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ. ← خبر طلبي.

المقام الثالث: قال تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ﴾.

لما كان المقام مقام إنكار الكافرين للرسل: ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما أنزل الرحمن من شيء،
استدعى تأكيد الخطاب بأكثر من مؤكّد:

- إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ. ← خبر إنكاري.

بناء على هذا، نجد أنّ الإخبار بأضره الثلاثة يضعنا أمام مقامات ثلاثة تخضع لحال المخاطب»
أولها يكون فيها المتكلم، أعرف من السامع، والسامع لا يعرف شيئاً عن موضع الخطاب، وبالتالي لا
يستطيع أن يصدر حكماً، ويكون التقبل وجهته. وثانيهما، يملك فيه السامع معرفة ما، ولكنها تحتاج إلى
دعم من المتكلم. أما في الحالة الثالثة فإنّ المقام مبني أساساً على التقابل، لأنّ السامع في هذه الحالة
يرفض، ويسند رفضه بمجموعة من الحجج⁽⁴⁶⁾، مما يجعل المواجهة بين المخاطب والمخاطب (الجمهور)
تتسم بالعرض من جهة والرفض من جهة أخرى، وهذا ما يدخل الخطاب في السياق الحجاجي. وهكذا
نخلص إلى القانون البلاغي التالي: إن الخطاب التواصلية البلاغي، خطاب تداولي في صميمه، لا سيما في
قسمه الإخباري، الذي يعلن بأنّ الإسناد في الجملة الإخبارية، يجب أن يكون قصد المتكلم به مطابقاً لحال
مخاطبه.

والفارق الذي تحدّد على أساسه الأضر الثلاثة عند السكاكي، هو المظاهر التالية:
القصد Intentionnalité، والإفادة Pertinence، والسياق المقامي Contexte Situationnel،
وهي قرائن تداولية مافتى يؤكدّها علماء التداولية حديثاً، وتناولها السكاكي في مفتاحه وقبله

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلal - د. باديس لهويل

الجرجاني في دلائل الإعجاز، ويمكن أن نخلص في هذه النقطة إلى القانون البلاغي التالي: إن الخطاب التواصلية البلاغي، خطاب تداولي في صميمه، خاصة في قسمه الإخباري، الذي يعلن بأن الإسناد في الجملة الإخبارية، يجب أن يكون قصد المتكلم به مطابقا لحال مخاطبه. - فإذا كان المخاطب خالي الذهن، فمقتضى الحال أن يأتي الخطاب (فعل الإخبار) خاليا من التأكيد.

- وإذا كان المخاطب شاكا مترددا، فمقتضى الحال تأكيد الخطاب (فعل الإخبار) بمؤكد واحد. - وإذا كان المخاطب منكرا للخطاب فمقتضى الحال تأكيد الخطاب (فعل الإخبار) بأكثر من مؤكد. رابعا: مخالفة مقتضى الظاهر بافتراض حال المخاطب من منظور أفعال الكلام غير المباشرة: لم يفت السكاكي الإشارة لما يندرج ضمن ظاهرة الأفعال الكلامية الإنجازية غير المباشرة، حيث نجده حينما قسم الكلام إلى خبر وطلب وضع لكل قانون منهما شروطا مقامية تتحكم في إجراءاتهما على الأصل، بحسب مقتضى الحال بغية إنجاز أفعال متنوعة: إخبار واستفهام وأمر ونهي ونداء. فرأى في قانون الخبر الذي يتحقق به، إذا ما أجري الكلام على أصله أفعالا كلامية مباشرة (إثبات أو نفي أو تأكيد)، أنه يحوي أفعالا كلامية غير مباشرة إذا أجري الكلام فيه على خلاف مقتضيات الأحوال، فيخرج عن قصد صاحبه إلى أغراض مختلفة تستفاد من السياق كإنزال المحيط بالخبر منزلة المنكر، أو إنزال خالي الذهن منزلة المتردد، وهو ما رأى فيه السكاكي عملا لا يقوم به إلا أهل البلاغة والفصاحة المفلقين السحرة، يقول: «ثم إنك ترى المفلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام، لا على مقتضى الظاهر كثيرا وذلك إذ أحلوا المحيط بفائدة الجملة الخبرية وبلازم فائدتها علما محلّ الخالي الذهن عن ذلك لاعتبارات خطابية، مرجعها تجهيله بوجوه مختلفة»⁽⁴⁷⁾، ويكون في اللغة الإبداعية حيث يعتمد المبدع إلى الخروج عن الأصل والعدول عنه، فيشكل البنية اللغوية لكلامه على خلاف مقتضى الظاهر، مراعيًا في ذلك أمورًا اعتبارية يتطلّبها السياق، فتنشأ جراء ذلك أفعال كلامية غير مباشرة تستلزم من سياقات الكلام.

ولإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر عدّة صور تركز على "المخاطب وبلاغته، منها: بلاغة الجمهور التي تعرّض لها السكاكي وتندرج في إطار الأفعال الكلامية غير المباشرة، دراسة الطلب بألفاظ الخبر؛ أي العدول بألفاظ الخبر للدلالة على الطلب أو العكس، تضمين الخبر معنى الطلب، وهو تحوّل دلالي على مستوى الصيغة يفرضه مقام التلقي والحال، يقول السكاكي: «واعلم أنّ الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر فيذكر أحدهما في موضع الآخر ولا يصار إلى ذلك إلا لتوحي نكت قلما يتقطّن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا»⁽⁴⁸⁾ والانحراف أو العدول بين الأساليب هنا يتجاوز مستوى البناء اللغوي إلى ما يقتضيه المقام، فهو إذن مستوى أوسع يتعلق باختيار الأساليب التعبيرية لتستخدم في غير ما وضعت له استنادا

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلal - د. باديس لهويل

لما يقتضيه المقام، فالسّياق والمقام ركن أساس في تحديد وجهة الأفعال الكلامية غير المباشرة ودلالاتها، وبه يتحقق الفهم والإفهام في الخطاب، والتأثير في المتلقي .

وبناء على ذلك رأى السكاكي أنّ الخبر كثيرا ما يوضع في موضع الطّلب ويستخدم لإنجاز أفعال كلامية تنحصر في: الدّعاء والأمر والنّهي لعدّة أسباب ومقاصد يرومها المتكلم منها: قصد التّفاؤل بالوقوع، وإظهار الحرص في وقوع الفعل المطلوب.

يتبيّن لنا الآن أنّ التّعبير عن الأخبار قد يجري على مقتضى الظّاهر وقد يكون على خلاف مقتضى الظاهر، والبليغ هو الذي يعطي لكل موقف حقه، بحسب بلاغة متلقيه ومستواه وبحسب كفاءته التداولية، «والذكي الأريب هو القادر على وضع كل شيء في مكانه اللائق والمناسب، وهو الذي يغوص في أعماق نفس الإنسان الذي يخاطبه فيفهم ما يعتلج فيها، ويدور في حناياها وحينئذ يختار الكلمة المناسبة لهذا الإنسان وذلك مقتضى الحال»⁽⁴⁹⁾ وهذا لعمرى من صميم البحث البلاغي والتّداولي الحديث ذلك أنّه يقوم على مراعاة موقف السّامع النفسي ومقامه، مما يضطر المتكلم إلى تعديل الكلام والتّصرف فيه بما يتلاءم مع الموقف الجديد ويجعل الكلام يؤدّي الوظيفة التّواصلية المنوطة به، وهو ما يعرف بـ«التّعالق بين الوظيفة والبنية»⁽⁵⁰⁾.

فخروج الكلام على مقتضى الظّاهر مع مراعاة حال المخاطب يعدّ إنجازا لأفعال كلامية مباشرة، في حين يكون أداء الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر إنجازا لأفعال كلامية غير مباشرة، لأنّ المتكلم حينها يكون قد استشرف نفسيّة متلقيه وراعى حاله غير الظّاهرة في المقام، ليصل إلى إخراج كلامه على مقتضى تلك الحال وإن كانت على خلاف مقتضى الظّاهر، وهذا ما يدلّ على مراعاة لأوضاع غير لسانية لا تظهر على مستوى البنية السّطحية للكلام وإنّما يتمّ الوصول إليها على مستوى البنية العميقة، ممّا يعني أنّ هناك علاقة متينة بين قصد المتكلم، ومقام المتلقي ونفسيّته ولذلك أكّد السكاكي ضرورة مراعاة مقتضى الحال، وهو ما تركّز عليه اللسانيات التّداولية في أبحاثها، ممّا يعني أنّ السكاكي في حديثه عن مقتضى الظّاهر (فعل كلامي مباشر)، وخروج الكلام لا على مقتضى الظاهر (فعل كلامي غير مباشر)، وما يترتّب عن ذلك من مراعاة للمقام ونفسية متلقي الخطاب، كان يحمل في ذهنه مظاهر تداولية مهمّة تسير أفكاره ومباحثه، وتتجلّى بوضوح في اهتمامه بالأوضاع النّفسية والدّهنية التي تؤطرّ الفعل الكلامي الإنجازي فتجعله تارة فعلا كلاميا إنجازيا مباشرا، وتارة أخرى فعلا كلاميا إنجازيا غير مباشر من خلال مراعاة حال

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلal - د. باديس لهويل

المتلقي (الجمهور) ومقامه لا الظاهرة فقط، وإنما حتى الباطنية الكامنة في نفسه وذهنه، مما يجعلنا نقول أنّ الوصف اللغوي في المفتاح جاء شاملا لجميع أوضاع اللغة ومستوياتها اللغوية (صوت وصرف ونحو وبلاغة ودلالة)، وحتى غير اللغوية النفسية والذهنية، ومقامات الكلام كله، وهو ما هذا ببعض الباحثين إلى وصف لسانيات السكاكي باللسانيات الشمولية.⁽⁵¹⁾

خاتمة: يتضح لنا من خلال هذه الدراسة أنّ مفتاح العلوم يستجيب للطرح البلاغي التداولي الحديث، اهتم فيه السكاكي بتوصيف عناصر العملية التواصلية مجتمعة، بكيفية تكون فيها خادمة للجمهور المتلقي للخطاب المنتج، ولعلّ مقولة الباحث "نعمان بوقرة" تختصر ذلك، يقول: «تجلت ملامح التداولية بشكل أكبر عند السكاكي من خلال توصيف عناصر العملية التواصلية وربطها بمقتضى الحال لأنّ وضعية المتلقي [الجمهور] وأحواله تسهم مساهمة فعّالة في فهم المقصد فهما جيدا وتحدّد أيضا نوعية الكلام المرسل من المتكلم»⁽⁵²⁾.

يشترط السكاكي الإفادة والاستحسان في البلاغة علم المعاني خاصة، وذلك باشتراط تحقيق الفائدة لدى المتلقي (الجمهور)، وإلا سيعدّ كلاما باطلا لا يُلبّي الغرض الذي وُضع من أجله. فموضوع علم المعاني إذن دراسة العلاقة بين تراكيب الكلام و"مقتضى الحال"، وهذا من مباحث العناية ببلاغة الجمهور (المخاطب) في بلاغتنا العربية

وعليه فإن طرح السكاكي في مفتاحه، طرح بلاغي يقترب من الفكر اللساني المعاصر في عنايته ببلاغة الجمهور، وأهميتها في إنتاج الخطاب وتلقيه، يمكن أن يكون نواة صلبة لتجديد الخطاب البلاغي وتأسيس ذلك، مستفيدين من التطورات المعرفية التي شهدتها البلاغة في الدرس التداولي المعاصر.

"The key to science" Sakkaki (d. 626 e)

introduction

The book "The key to science" Sakkaki (d. 626 e) has an important place in the Arab rhetorical heritage, given the collection, organization and classification of the subjects of Arabic rhetoric and control of the terminology after it was scattered and dispersed issues and issues not controlled by an officer, until Abu YaqoubYousef bin AbiBakrSakkaki gathered He defined the terms and sections to become a note of his origins and rules governing him, taking the youth to learn how to guard against error in

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلل - د. باديس لهويل

speech, as well as receiving and understand its meaning accurately.

This article is a general descriptive study that examines the importance of the addressee in the production of speech in traditional rhetoric, because the addressee when issuing his speech must take into account a number of elements in order to achieve the communicative efficiency of these elements to take into account the situation of the audience who receives his speech, and take into account the context of communication and its place, which elements of me Sakaki in his key science Emma Attn. The study also tries to examine the aspects of interest in the rhetoric in our Arabic rhetoric through a practical example in rhetorical sections towards the subject of the news and some aspects of the violation of the apparent requirement based on the assessment of the recipient, taking advantage of the deliberative presentation of the speech as much as possible because of the mechanisms that contribute to the development of our Arabic rhetoric and issues In line with contemporary linguistic knowledge.

Our article discussing the issues of rhetorical heritage can be borrowed and borrowed with the modern linguistic lesson, addresses the problem we formulate in the following: To what extent can the role of the addressee in the production of meaning in Arabic rhetoric be highlighted by the key to science, and to what extent can the traditional narrative of the issue intersect with the modern deliberative linguistic discourse? What kind of knowledge relationship can exist between what is in our Arabic rhetoric on the one hand and deliberative linguistics on the other?

Top search results:

- The key to science includes many of the subjects of the study of language in use, which are comparable to those found in contemporary deliberative studies highlighted by John Austin, Van Dabke and others
- Context is a central idea in Arabic rhetoric and deliberative and has a direct relationship with the speaker and the listener and the message we found framework framed Sakaki work in his book and take an important mechanism to address all issues of rhetoric from different angles, which gives it an important functional dimension of Sania.
- Sakaki's attention to the elements of the discourse and its sponsorship in speech structures make the key a fertile area for the establishment of Arab deliberative linguistics, concerned with the eloquence of the public, and looking at the meaning and take the language as a ground for study and analysis during use, as that who cares according to the situation and the maqam, the speaker and the addressee (audience) and speech and intent The statement, all indications of the deliberative study and its manifestations, is true to be included in the deliberative interests in the Arab linguistic heritage, especially rhetoric, and therefore, "Van Dijk" Van Dijk that "rhetoric is the historical precedent of the science of the text." Thus, Sakkaki's presentation in his key, a rhetorical approach approaching contemporary linguistic thought in his attention to the eloquence of the public, and its importance in the production and receipt of speech, can be a solid nucleus for the renewal of rhetoric rhetoric and rooting it, taking advantage of the knowledge developments witnessed rhetoric in the contemporary deliberative lesson.

Keywords: Rhetoric, deliberative, communication, linguistics

- (1) يُنظر في ترجمة السكاكي: مفتاح العلوم: تحقيق عبد الحميد هندراوي، ص14-15؛ السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر، بيروت، الجزء2، ط2، 1979، ص364؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الغرب الاسلامي، الجزء6، (ط1)، 1993،
(2) نفسه، ص39.
(3) يقصد السكاكي بنوع اللغة: المعجم أي دلالة الألفاظ في المعجم.
(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص37. وباديس لهويل : مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، عالم الكتب الحديث، الأردن ، ط1، 2014، ص
(5) يُنظر: باديس لهويل وآخرون، نظرية السياق بين التوصيف والتأصيل والإجراء، سلسلة دراسات محكمة في اللغة والأدب والنقد، دار السياح للطباعة والنشر والتوزيع، لندن، ط1، 2015، ص133-154.
(6) جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامّة ، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، (دط)، 1991، ص65.
(7) المرجع نفسه، ص120، 121 .
(8) يُنظر: يُنظر: باديس لهويل وآخرون، نظرية السياق بين التوصيف والتأصيل والإجراء ، المرجع السابق، ص133 وما بعدها.
(9) مفتاح العلوم: السكاكي، ص256.
(10) يُنظر: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (دط)، 2000، ص34، 35؛ و في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: سعد عبد العزيز مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2006، ص78، 79.
(11) نور الهدى باديس: بلاغة الوفرة و بلاغة الندرة ، مبحث في الإيجاز والإطناب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر تونس، ط1، 2001، ص14
(12) نفسه، ص256.
(13) بشير إبرير: توظيف النظرية التبليغية في تدريس النصوص بالمدارس الثانوية الجزائرية، أطروحة دكتوراه، مخطوط، جامعة الجزائر، 1999/ 2000، ص33.
(14) مفتاح العلوم: ص271.
(15) المصدر نفسه، ص249.
(16) المصدر نفسه، ص431.
(17) محمد صلاح زكي أبو حميدة: البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، جامعة الأزهر، غزة، (دط)، 2007، ص30.
(18) مفتاح العلوم: ص363.
(19) يُنظر: محمد صلاح زكي أبو حميدة: البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، ص32.

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلal - د. باديس لهويل

- (20) مفتاح العلوم: ص363.
- (21) المصدر نفسه: ص413.
- (22) عبد القادر بن ظافر الشهيري: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004، ص47، 48.
- (23) يرى الباحث محمد صلاح زكي أبو حميدة أنّ السكاكي حين إشارته للمتلقّي (المخاطب)، يُؤثر استخدام مصطلح السامع دون غيره، ولهذا دلالاته الثقافية المتمثلة في كون النصوص الأدبية كانت تُلقى بلسان صاحبها مشافهة أو ينقلها الرواة شفاهة أيضا وبذلك فالمتلقّي يتصل بالنص من طريق السمع فحسب دون القراءة والكتابة وهو ما يؤدي إلى استجابة سريعة للنص يعوزها التأمل والتروي والاسترجاع ومن ثم تكون الأحكام انطباعية مباشرة. ينظر: البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، ص43.
- (24) مفتاح العلوم: ص247.
- (25) ينظر: محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، ص97؛ يقول الجابري بيانا لذلك: «إنّ علم المعاني يُعنى أساساً بشروط إنتاج الخطاب، بينما يُعنى علم البيان أساسا بقوانين تفسير الخطاب».
- (26) ينظر: مفتاح العلوم ص258، 259.
- (27) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 2004 ص299.
- (28) فايز القرعان: تقنيات الخطاب البلاغي دراسة نصية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2004، ص3.
- (29) ينظر: المرجع نفسه، ص3.
- (30) ينظر: خالد ميلاد: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة ص383، 384.
- (31) يتفق السكاكي في هذا المعيار مع تصنيف "أوستين" الأول حينما جعل الجمل الخبرية قسمين: جمل وصفية يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وجمل إنشائية لا تصف الكون فلا تخضع لذلك الحكم، ينظر: آن روبول، جاك موشلار التداولية اليوم علم جديد للتواصل، ترجمة، سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 2003، ص30؛ وخالد ميلاد: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، جامعة منوبة، تونس، المؤسسة العربية للتوزيع تونس، ط1، 2001، ص494.
- (32) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص81، 82.
- (33) نفسه، ص82.
- (34) نفسه، ص82، 135.
- (35) مفتاح العلوم، ص254-410. وينظر: باديس لهويل، مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014.
- (36) ينظر: نفسه، ص259. و ينظر باديس لهويل : الاستعمال اللغوي لأضرب الخبر في مفتاح العلوم للسكاكي متابعة تداولية، مجلة حوليات المخبر، مخبر اللسانيات واللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، ع1، 2013، ص113-123.
- (37) ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص95.

التخاطب في بلاغة السكاكي د. الربيع بوجلّال - د. باديس لهويل

- (38) ينظر: صلاح الدين ملاوي: "نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية" مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، دار الهدى، الجزائر، العدد 4، 2009، ص 39.
- (39) مفتاح العلوم، ص 258.
- (40) ديك الجن: ديوان ديك الجن الحمصي، تح: أحمد مطلوب، وعبد الله الجبوري، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، (دط)، 1964، ص 194؛ والسكاكي: مفتاح العلوم، ص 258.
- (41) الكهف: 46.
- (42) السكاكي: مفتاح العلوم، ص 258..
- (43) نفسه، ص 258، 259.
- (44) يس: 14، 16.
- (45) ينظر: مفتاح بن عروس: "وجهة الخطاب في سورة المؤمنين"، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ع 17، جانفي 2006، ص 149.
- (46) نفسه، ص 150.
- (47) مفتاح العلوم، ص 259.
- (48) مفتاح العلوم، ص 431.
- (49) بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد علم المعاني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج 1، ط 7، ص 70.
- (50) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 95.
- (51) ينظر: محمّد الصغير بنّاني: المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر، (دط) 2001، ص 41.
- (52) نعمان بوقرة: "ملاحم التفكير التداولي البياني عند الأصوليين"، www.algahereya.net (2010/08/18) سا 15:20